الجزء الأول

من كتاب العلوم الفاخره فى النظر فى أمور الآخره من
تأليف العلامة النحرير والولى الصالح الشهير
سيدى عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف
الثعالبى الجعفرى دفين مدينة
الجزائر رحمه الله ورضى
عنه ونفع بعلومه
آمين
م

﴿ حقوق الطبع محفوظة للمترجم السيد أحمد بن مراد ﴾
﴿ التركى وهى منقولة له من ورثة المؤلف ﴾

﴿ طبع ﴾
(بالمطبعة الحميدية المصريه)
سنة ١٣١٧ هجريه

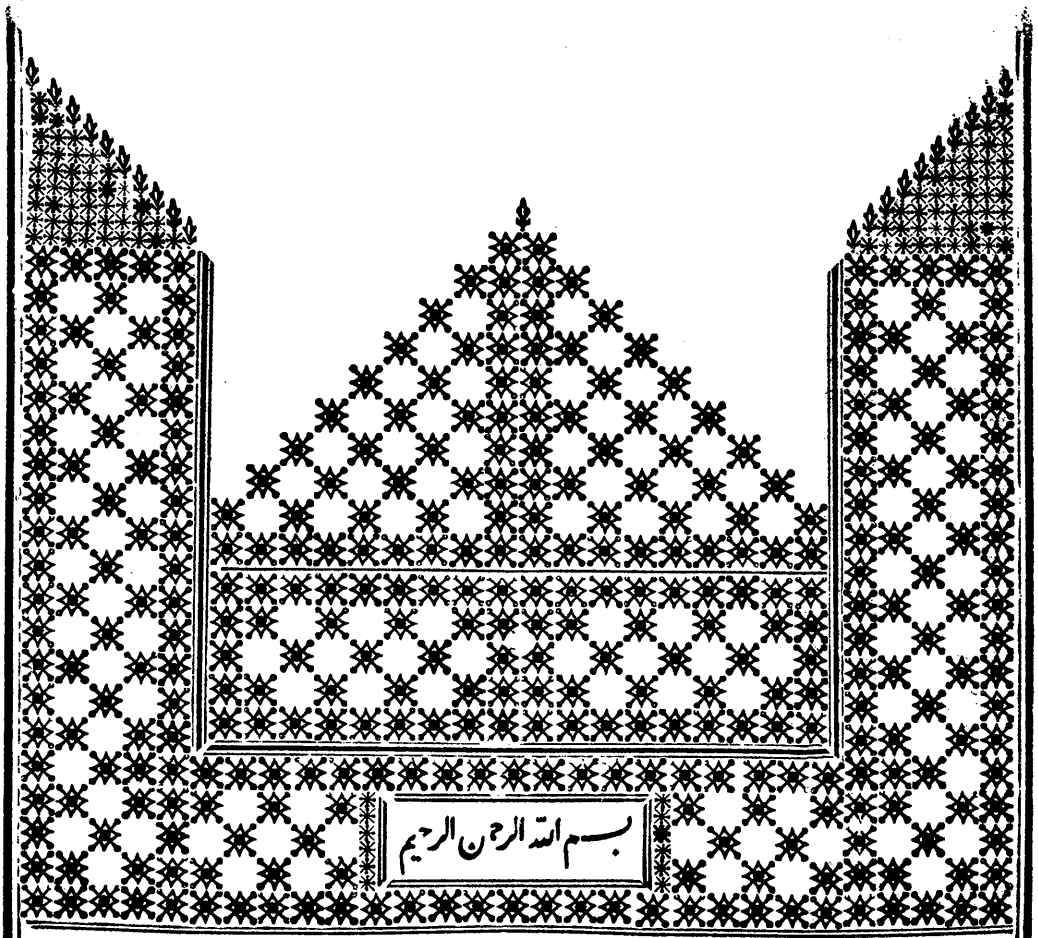

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالبقاء * الدائم الذى حكم على خلقه بالموت والفناء * ثم بالبعث الى دار الجزاء * والفصل والقضاء ليجزى قوما بما كانوا يكسبون * قسمهم قسمين * وجعلهم فريقين * هؤلاء منعمون وهؤلاء معذبون فضلا منه وعدلا لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون * فسبحان من جعل الموت راحة لاوليائه الاتقياء * ومبلغهم الى النعيم فى دار البقاء * وجعل القبر سجنا للاشقياء * وحبسا ضيقا عليهم الى يوم الفصل والقضاء * وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين * وامام المرسلين * وقائد الغر المحجلين * صلاة ندخر أنوارها ليوم الدين * ﴿وبعد﴾ فيقول العبد الذليل الحقير * المعترف بالعجز والتقصير * عبد الرحمن بن محمد الثعالبى لطف الله به اللطف الجميل * وخار له فى المقام والرحيل * لما وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا و بلغت من السنين نحوا من ثلاث وستين * وعلمت ان النفس قد قرب الحمام منها علم اليقين * وأيقنت انها راحلة فى عسكر الراحلين شرعت فى جمع كتاب أجعله تذكرة لنفسى * وأعد أنواره لظلام رمسى * فى ذكر الموت وما بعده من أمر الآخرة وقد ألف العلماء فى هذا المعنى تصانيف جليلة كأبى حامد الغزالى وأبى عبد الله محمد بن أحمد القرطبى وأبى محمد عبد الحق الاشبيلى والمحاسبى وغيرهم وسأذكر ان شاء الله تعالى فى كتابى هذا من كلامهم وكلام غيرهم من الائمة * وثقات أعلام هذه الامة * ما تنشرح له الصدور * ويستولى عليها الضياء والنور * وابتدأت جمعه وتأليفه فى أوائل ذى القعدة من سنة تسع وأربعين وثمانمائة جعله الله عملا خالصا لوجهه ومبلغا الى مرضاته اللهم انفعنى به فى الدارين وانفع به من نظره أو سمعه أو سعى فى تحصيله آمين آمين آمين والحمد لله رب العالمين

﴿وسميته بالعلوم الفاخرة فى النظر فى أمور الآخرة﴾

﴿باب ماجاء فى فضل ذكر الموت وحسن الاستعداد له وفى ذكر قصر الامل﴾

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبى فى تذكرته وأبو محمد عبد الحق الاشبيلى فى عاقبته روى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر هاذم اللذات يعنى الموت ورواه الترمذى وابن ماجه أيضا ورواه أبو نعيم الحافظ باسناده من حديث مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر هاذم اللذات قلنا يارسول الله وماهاذم اللذات قال الموت وروى ابن ماجه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم فجاء رجل من الانصار فسلم على النبى صلى الله عليه وسلم وقال يارسول الله أى المؤمنين أفضل قال أحسنهم خلقا قال فأى المؤمنين أكيس قال أكثرهم للموت ذكرا وأحسنهم لما بعده استعدادا أولئك الاكياس وخرجه مالك وابن اسحاق فى سيرته أيضا وروى الترمذى عن شداد بن أوس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله وروى عن أنس رضى الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر الموت فانه يمحص الذنوب ويزهد فى الدنيا وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال كفى بالموت واعظا وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة قال الغزالى رحمه الله تعالى وانما سبب هذه الفضيلة ان ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن ذكر الموت تدعو الى الانهماك فى شهوات الدنيا انتهى كلام الغزالى قال القرطبى وقال السدى فى قوله تعالى الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا أى أكثركم للموت ذكرا وله أحسن استعدادا ومنه أشد خوفا وحذرا قال علماؤنا رحمهم الله قوله صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة وأبلغ فى الموعظة فان من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة ومنعه من تمنيها فى المستقبل وزهده فيما كان منها يؤمل ولكن النفوس الراكدة والقلوب الغافلة تحتاج الى تطويل المواعظ وتزويق الالفاظ والافنى قوله صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر هاذم اللذات مع قوله سبحانه كل نفس ذائقة الموت مايكفى السامع له ويشغل الناظر فيه قال الغزالى فى الاحياء وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل حتى ان المنهمك فى الدنيا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا اذ يتنغص عليه نعيمه ويتكدر عليه صفو لذته وكل مايكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة * واعلم أنه مامن ميت يموت الا وهو نادم فقد روى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن أحد يموت الا ندم قيل وماندامته يارسول الله قال ان كان محسنا ندم أن لا يكون ازداد وان كان مسيئا ندم ان لا يكون نزع قلت ولله در القائل

وفى ذكر هول الموت والقبر والبلى * عن الشغل باللذات للمرء زاجر
أبعد اقتراب الاربعين تربص * وشيب فذاك منذر لك ذاعر
فكم فى بطون الارض بعد ظهورها * محاسنهم فيها بوال دوائر
وانت على الدنيا مكب منافس * لخطابها فيها حريص مكاثر
على خطر تمسى وتصبح لاهيا * أتدرى بماذا الوعقات تخاطر
وان امرأ يسعى لدنياه جاهدا * ويذهل عن أخراه لاشك خاسر
كأنك مغتر بما أنت صائر * لنفسك عمدا أو عن الرشد حائر
تجد ولا تغفل فعيشك زائل * وأنت الى دار المنية صائر
ولا تطلب الدنيا فان طلابها * وان نلت منها فوق ظنك ضائر

وكيف يلذ العيش من هو موقن * بموقف عدل حين تبلى السرائر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت * لعزة ذى العرش الملوك الجبابر

﴿فصل﴾ قال القرطبي اعلم ان ذكر الموت يورث استشعارا لانزعاج عن هذه الدار الفانية والتوجه فى كل لحظة الى الدار الباقية ثم من فوائد ذكره ان الانسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ونعمة ومحنة فان كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يهون عليه بعض ما هو فيه لانه لا يدوم والموت أشد منه وان كان فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بذلك ولقد أحسن من قال

اذكر الموت هاذم اللذات * وتجهز لصرع سوف يأتى

﴿وقال آخر﴾

اذكر الموت تجده راحة * فى ادكار الموت تقصير الامل

قال الغزالى رحمه الله تعالى فى الاحياء وانما علامة التوفيق ان يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة فيستعد للموت الذى يرد عليه فى الوقت فان عاش يومه الى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بانه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظا وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله الى الصباح وهكذا اذا أصبح ولا يتيسر هذا الا لمن فرغ القلب من الغد وما يكون فيه بقصر أمله فمثل هذا اذا مات سعد وان عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد خير فليكن الموت على بالك يا مسكين فان السير حاث بك وانت غافل عن نفسك ولعلك قد قربت المنزل وقطعت المسافة فلا يكون اهتمامك الا بمبادرة العمل قبل انقضاء الاجل اغتناما لكل نفس أمهلت فيه قال القرطبي واعلم ان الموت ليس له زمان معلوم ولا مرض معلوم فالواجب التأهب له قبل هجومه وذلك بحسن الاستعداد بأخذ الزاد * كان بعض الصالحين ينادى بالليل على سور المدينة الرحيل الرحيل فلما توفى رحمه الله تعالى فقد أمير تلك البلدة صوته فسأل عنه فقيل له قد مات فأنشأ يقول

مازال يلهج بالرحيل وذكره * حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظا متشمرا * ذا أهبة لم تلهه الآمال

وقال اللفاف من أكثر ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء تعجيل التوبة وقناعة القلب ونشاط العبادة ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء تسويف التوبة وترك الرضا بالكفاف والتكاسل فى العبادة ومما أنشده صاحب عنوان الدراية لشيخه أبى العباس بن الغماز قال

هو الموت فاحذر ان يجيئك بغتة * وانت على سوء من الفعل عاكف
واياك ان تمضى من الدهر ساعة * ولا لحظة الا وقلبك واجف
وبادر بأعمال يسرك ان ترى * اذا نشرت يوم الحساب الصحائف

﴿فصل﴾ قوله صلى الله عليه وسلم الكيس من دان نفسه أى حاسبها وقال أبو عبيد دان نفسه أى أذلها واستعبدها واعلم ان فى ذكر الموت راحة للمقبل على آخرته ولقد أحسن القائل

واذكر الموت تجد له راحة * فى ادكار الموت تقصير الامل

قال ابن الفاكهانى رحمه الله تعالى قال بعض العلماء الذى ينبغى لكل عاقل فى طول حياته ان يكون شديد الخوف من عقاب ربه سبحانه معتبرا لذكر الموت فى جميع أحواله وان يكون أجله بين عينيه فيقصر أمله ويبادر الى التوبة ويتحلل من مظالم العباد خوفا من مجىء الموت قال وروينا فى سنن ابن ماجه باسناد حسن ان النبى صلى الله عليه وسلم أبصر جماعة يحفرون قبرا فبكى حتى بل الثرى بدموعه وقال اخوانى لمثل هذا فاعدوا وقال ويتأكد استحباب ذكر الموت حالة المرض لانه اذا ذكر الموت رق قلبه وخاف ورجع من المظالم والمعاصى وأقبل على الطاعة وسارع الى الخيرات قال العلماء ويستحب الاكثار من حديث استحيوا من الله وهو مما رواه الترمذى عن عبد الله بن مسعود

رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء قال قلنا يا رسول الله انا نستحي والحمد لله قال ليس ذلك ولكن الاستحياء من الله حق الحياء ان تحفظ الرأس وما وعى وتحفظ البطن وما حوى ولتذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء قال الغزالى رحمه الله تعالى وجدير لمن الموت مصرعه والتراب مضجعه والدود أنيسه ومنكر ونكير جليسه والقبر مقره وبطن الارض مستقره والقيامة موعده والجنة والنار مورده بان لا يكون له فكر الا فى الموت ولا ذكر الا له ولا استعداد الا لاجله وحقيق بان يعد نفسه من الموتى ويراها فى أصحاب القبور فان كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ولن يتيسر الاستعداد للشئ الا عند تجدد ذكره على القلب ونحن نذكر ان شاء الله تعالى من أمر الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والبرزخ والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكاره على التكرار وملازمته بالافتكار ليكون ذلك مع توفيق الله سبحانه محثا على الاستعداد والتأهب للرحيل بأخذ الزاد واعلم رحمك الله ان المنهمك فى لذاته المثابر على شهواته يغفل قلبه عن ذكر الموت لاستحالة فلا يذكره واذا ذكر به كرهه ونفر عنه وهذا واشباهه من الذين قال مولانا سبحانه فيهم قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون واعلم رحمك الله ان الموت خطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه أعظم ثم من يذكره منهم ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بوساوس الدنيا فلا يؤثر ذكر الموت فى قلبه وانما الطريق النافع فيه ان يفرغ العبد قلبه من كل شئ الا من ذكر الموت الذى هو بين يديه فاذا باشر ذكر الموت قلبه فحينئذ يرجى له ان يؤثر فيه وأنفع طريق يوافيه ان يذكر الانسان أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فيتذكر موتهم ومصرعهم تحت التراب ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف محى التراب الآن محاسنهم وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وقسمت أموالهم وعرضت عليهم أعمالهم وندموا على ما خلفوا ولم ينفعهم ندمهم وقرع سمعهم النداء اما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر الموفق نظر شفقة لنفسه ويعلم انه مثلهم وان غفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم قال أبو الدرداء رضى الله عنه اذا ذكرت الموتى فعد نفسك كاحدهم فلازمة هذه الافكار وأشباهها هو الذى يجدد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه حتى يصير نصب عينيه فعند ذلك يرجى ان يستعد له ويتجافى عن دار الغرور ومهما طاق قلبه بشئ من الدنيا ينبغى ان يتذكر فى الحال انه لا بد من مفارقته ولله در القائل

وليس بعيدا ما يكون وان نأى * فكل بعيد لا محالة آت
سهام المنايا راشقات لمن ترى * تصيب الفتى فى روحة وبيات

﴿ وأنشدوا ﴾

وما هى الا ليلة ثم يومها * ويوم الى يوم وشهر الى شهر
مطايا يقربن الجديد الى البلى * ويدنين أشلاء الصحيح الى القبر
ويتركن أزواج الغيور لغيره * ويقسمن ما يحوى الشحيح من الوفر

﴿ وأنشدوا ﴾

اما آن للنفس ان تخشعا * اما آن للقلب ان يقلعا
تقضى الزمان ولا مطمع * لما قد مضى منه ان يرجعا
تقضى الزمان فواحسرتا * لما فات منه وما ضيعا
ويا ويلتاه لذى شيبة * يطيع هوى النفس لما دعا

قال أبو نعيم فى الحلية وكتب زر بن حبيش الى عبد الملك بن مروان يعظه وكان فى آخر الكتاب ولا يطمعك يا أمير المؤمنين فى طول الحياة ما يظهر من صحتك وأنت أعلم بنفسك واذكر ما تكلم به الاولون

اذا الرجال ولدت أولادها * وبليت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها * تلك زروع قد دنا حصادها

وروى أبو نعيم عن سفيان الثوري انه قال من بلغ سن النبي صلى الله عليه وسلم فليرتد لنفسه كفنا وأنشد صاحب عنوان الدراية لشيخه أبي عبد الله التميمي رحمه الله تعالى

الخبر أصدق في المرأى من الخبر * فهد العذر ليس العين كالاثر
واعمل لاخرى ولا تبخل بمكرمة * فكل شئ على حد الى قدر
وخل عن زمن تخشى عواقبه * ان الزمان اذا فكرت ذو غير
وكل حي وان طالت سلامته * يغتاله الموت بين الورد والصدر
هو الحمام فلا تبعد زيارته * ولا تقل ليتني منه على حذر
ياويح من غره دهر فسر به * لم يخلص الصفو الا شيب بالكدر
أنظر لمن بادت نظرا آية عجبا * وعبرة لاولى الالباب والعبر
أين الالى جنبوا خيلا مسومة * وشيدوا ارما خوفا من الغدر
لم تغنهم خيلهم يوما وان كثرت * ولم تفدهم للحادث النكر
بادوا فعاد واحديثا ان ذا عجب * ما أوضح الرشد لو لا سيئ النظر
تنافس الناس في الدنيا وقد علموا * ان المقام بها كالملح بالبصر

قال عبد الحق رحمه الله تعالى في العاقبة اعلموا رحمكم الله تعالى ان الناس في ذكر الموت على ضروب فمنهم المنهمك في لذاته المضيع فيها ما لا يرجع اليه من أوقاته لا يخطر له الموت على بال ولا يحدث نفسه بزوال قد طرح أخراه واكب على دنياه واتخذ الهه هواه فاصمه ذلك وأعماه ان ذكر له الموت نفر عنه وشرد وان وعظ أنف وعند قد حاد عن سبيل نهجه ونكب عن طريق رشده مقبلا على بطنه وفرجه فتبت يداه وخسر مسعاه كأنه لم يسمع قول الله عز وجل كل نفس ذائقة الموت وآخر قلبه معلق بالدنيا وهمه فيها ونظره مصروف اليها وهو مع ذلك من طلابها المحرومين وابنائها المكدودين لم ينل منها حظا ولا رقى منها مرقى ان ذكر له الموت تصامم عن ذكره ولم يمكنه من فكره رجاء ان يبلغ ما أمل أو يدرك بعض ما تخيل فعمره ينقص وحرصه يزيد وجسمه يخلق وأمله جديد وحتفه قريب ومطلبه بعيد فنعوذ بالله من الحرمان ومن شماتة العدو الشيطان فهذا والذي قبله ان لم تكن لهما عناية أزليه وسابقة أوليه فيمسك عليهما الايمان ويختم لهما بالاسلام والا فقد هلكا كل الهلاك فنعوذ بالله من سوء القضاء ودرك الشقاء وشماتة الاعداء فانظر رحمك الله كيف تقر عين عاقل في هذه الدار مع وجود هذه الاخطار ولله در القائل

وكيف تنام العين وهي قريرة * ولم تدر في أي المنازل تنزل

ورجل آخر وقليل ما هم ممن أزيل عن عينه قذاها وأبصر نفسه وهواها وزجرها ونهاها فابى المنادي وأجاب الداعي وشمر للتلافي ما فات ونظر فيما هو آت وتأهب لحلول الممات والانتقال الى محل الاموات ومع هذا فانه يكره الموت أن يشاهد وقائعه أو يرى طلائعه وليس يكره الموت لذاته ولا لانه هاذم لذاته لكنه يخاف ان يقطعه عن الاستعداد ليوم المعاد والاكتساب ليوم الحساب ويكره ان تطوى صحيفة عمله قبل بلوغ أمله وان يبادر باجله قبل اصلاح خلله وتدارك زلله فهو يريد البقاء في هذه الدار لقضاء هذه الاوطار فهذا ان مات يالله دره من ميت ما أفضل حياته وأطيب مماته وأعظم سعادته وأكرم وفادته وأتم سروره وأكمل حبوره واعلم ان هذا لا يدخل تحت قوله صلى الله عليه وسلم من كره لقاء الله كره الله لقاءه كما قد وقع مفسرا في الحديث * ورجل آخر وهو من أقل القليل قد عرف الله تعالى باسمائه الحسنى وصفاته العليا

وشاهد ماشاهد من كمال الربوبية وجمال الحضرة الالهية فلأت عينه وقلبه واطاشت عقله ولبه فهو يحن الى ذلك المشهد ويستعجل انجاز ذلك الموعد وقد علم ان الموت حجاب بينه وبين محبوبه وستر مسدول بينه وبين مطلوبه ومقدمات هذا وأمثاله تدل على ماوراءها من الوصال والاتصال والانس بذلك الجلال والجمال * ورجل آخر قد شاهد ماشاهد ذلك وربما زاد عليه لكنه فوض الامر الى خالقه وسلم الحكم لبارئه فلم يرض الا مارضى له ولم يرد الا ماأراد به وما اختار الا ماحكم فيه ان أبقاه في هذه الدار أبقاه وان أخذه أخذه قال أحمد بن أبي الحواري قال أبو سليمان الداراني الناس رجلان رجل أحب الله فأحب الموت شوقا الى لقاء الله ورجل أحب البقاء باقامة حق الله قال فوثب غلام لم يحتلم فقال ورجل ثالث فقال أبو سليمان ومن هو فقال من لم يختر لا هذا ولا هذا بل اختار ما اختار الله عز وجل فقال أبو سليمان احتفظوا بالغلام فانه صديق فهذا وأشباهه اذا مات لا يسئل عن حاله ولا يقال ما فعل به

﴿فصل﴾ قال الجوزي في الصفوة وعن أحمد بن عاصم قال قال هرم بن حيان لاويس القرني أوصني قال توسد الموت اذا نمت واجعله نصب عينيك اذا قمت وادع الله ان يصلح لك قلبك وأوصاه مرة فقال له عليك بذكر الموت فلا يفارق من قلبك ما بقيت قال الحسن ما رأيت عاقلا قط الا وجدته حذرا من الموت حزينا من أجله قال عبد الحق وقد أمر في النبي صلى الله عليه وسلم بذكر الموت وأعاد القول فيه تهويلا لامره وتعظيما لشأنه وكثرة ذكر الموت تردع عن المعاصي وتلين القلب القاسي * وعلى العبد بتقصير الامل فان من طال أمله ساء عمله ومن خاف الوعيد قرب عليه البعيد قال الغزالي في المنهاج أما طول الامل فانه العائق عن كل خير والجالب لكل فتنة وهو يقسي القلب وينسي الآخرة وانما رقة القلب وصفوته بذكر الموت والقبر والعقاب والثواب وأحوال الآخرة واذا لم يكن شئ من ذلك فمن أين يكون لقلبك رقة وصفوة قال مولانا سبحانه فطال عليهم الامد فقست قلوبهم فاذن فانك اذا طولت أملك قلت طاعتك وكثرت معصيتك وتأخرت توبتك وأي حال أسوأ من هذه الحال وأي آفة أعظم من هذه وكل هذا بسبب طول الامل واما ان قصرت أملك وقربت من نفسك موتك وتذكرت حال أقرانك الذين غافصهم الموت في وقت لم يحتسبوا وحذرت نفسك الغرور وأكثرت عليها من نحو هذه الاذكار وواظبت على ذلك بالاعادة والتكرار فانه يقصر أملك باذن الله وترى نفسك حينئذ تبادر الى الطاعات وتعجل توبتك فتسقط معصيتك وتزهد في الدنيا وفي طلبها فيخف حسابك وتبعتك ويقع قلبك في ذكر الآخرة وما هو الا من نفس الى نفس تصير اليها وتعاينها واعلم ان حصن قصر الامل ذكر الموت وحصن حصنه ذكر فجأته وأخذه على غرة فاحتفظ بهذه الجملة وحصلها فان الحاجة اليها ماسة ودع عنك تضييع الوقت في القيل والقال وملاحات الرجال والله سبحانه الموفق بفضله وقال يمن بن رزق رحمه الله تعالى فاهل الطاعات قدموا بين يدي الاعمال لطيف معرفة الاسباب التي بها يستديمون صالح الاعمال ويسهل عليهم مأخذها توطينا منهم لانفسهم استصحاب يقينهم الى انقضاء آجالهم فصيروا أعمالهم في الدنيا يوما واحدا وليلة واحدة كلما مضت ليلة استأنفوا الثانية وطلبوا من أنفسهم حسن الصحبة ليومهم وليلتهم وكلما مضى عنهم يوم بحسن الصحبة منهم أو ليلة راقبوا أنفسهم فيها على جميع الطاعات وكان ذلك عندهم غنما وذكروا اليوم الماضي فسروا به فصبروا أنفسهم على اليوم المستقبل لانقضاء الاجل فيه أو في ليلته وطرحوا شغل القلب بذكر غد فقصرت عندهم الآمال وقربت عندهم الآجال وتقربوا الى الله سبحانه بالاعمال الزاكية واستقام لهم السير وقرت بالخوف أعينهم وتلذذوا بمناجات خالقهم فقلوبهم بملكوت السموات متعلقة وفكرهم باهوال القيامة مقبلة ومدبرة قال عبد الحق والناس في طول الامل وقصره على أحوال مختلفة فمنهم من طول في أمله فازداد في كسله ودخل الوهن في عمله وآخر قد قصر أمله وجعل التقوى بضاعته والعبادة صناعته ولم يتجاوز بأمله ساعته ومثل هذا قد رفع التوفيق عليه لواءه وألبسه رداءه وأعطاه جماله وبهاءه فانظر رحمك الله أي الرجلين

تريد أن تكون واى العملين تريدان تعمل و بأى الرداءين تريدان تشتمل فلست تلبس هناك الا ما لبسته هنا ولا تحشر هناك الا فيما كنت فيه هنا واعلم وتحقق ان طول الامل يكسل عن العمل وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج الى بيان ولا يطلب صاحبه ببرهان كما ان قصره يبعث على العمل و يحمل على المبادرة و يحث على المسابقة وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد ذكره القاضى أبو الحسن ابن صخر فى الفوائد واعلم ان الحكايات فى هذا الباب أكثر من ان تحصر وقد دونت فى الموت والاتعاظ به الاخبار وصنعت فيه الاشعار وضربت فيه الامثال وعملت بسبب الفكر فيه الاعمال وأى أعمال ومن مستحسن ما أنشد فيه قول القائل

ألا رب ذى أجل قد حضر * كثير التمنى قليل الحذر
يجرعه الجهل كاس المنا * و يحمله فوق ظهر الغرر
وينسى المنون وريب المنون * وينسى الخطوب وينسى القبر
وكم من ملوك عهدناهم * تفانوا ونحن معا بالاثر
أخى أضعت أمورا أراك * لنفسك فيها قليل النظر
تؤمل فى الارض طول الخلود * وعمرك يزداد فيه اقصر

قال ابن هشام فى السيرة المنون الموت وريب المنون ما يريب و يعرض منها قال أبو ذؤيب الهذلى

أمن المنون وريبه أتوجع * والدهر ليس بمعتب من يجزع

﴿ وأنشدوا ﴾

يا من يؤمل لا تركن الى الامل * وبادر الخير واغنم فسحة الاجل
واذكر وقوفك يوم الحشر مكتئبا * مما تقدم من جرم ومن زلل
واحذر اذا وضع الميزان من عمل * يقضى عليك بانواع من الخلل
والنار لا تنسى ما فيها لمن سلفت * منه المعاصى ولم يندم ولم يزل
شراب من حل فيها ذا الصديد ومن * زقومها أكلهم يا قبح ذا الاكل
فاحذر من عذاب الله واكتسبن * أجرا ولا تكسلن عن صالح العمل

﴿ وأنشدوا ﴾

تولى العمر وانقرض الشباب * فما يرجى لغائبه اياب
فحتى متى التعلل بالامانى * وفيم الحرص ويحك والطلاب
أمنت حوادث الايام جهلا * وطاب لك الذى لا يستطاب
فانفقت الحياة على أمور * تمر بها كما مر السحاب

﴿ ولله در القائل ﴾

أرى المشيب فى العذار قد ألم * كان موتى عن قريب قد هجم
خط المشيب أسطرا فى هامتى * فراعنى ما خطه وما رقم
هل الفتى اذا انقضى شبابه * الا كزرع هاج سوف يحطم
شاب الفؤاد قبل شيب لمتى * وسامنى ضعف القوى مثل الصمم
و يحى من التوبيخ من ربى غدا * ويحى من السقم الشديد اذا صدم

﴿ وأنشدوا ﴾

حلول الشيب و يحكم نذير * يخبر انه قرب المسير
فلا تغرركم الدنيا بوعد * فان وعدها كذب وزور

ألم يك قد تملكها أناس * أليس بها فنى خلق كثير
تملوا برهة فيها فاسموا * وليس لهم من الدنيا بحير
أبادتهم وافتهم جميعا * فلا ملك يؤب ولا وزير
تشتت شملهم بعد اجتماع * فلم يبق الجليل ولا الحقير
وزال نعيمهم عنهم فاضحوا * رميما والقبور لهم قصور

﴿وأنشدوا﴾

ألا أيها المغرور مالك تلعب * تؤمل آمالا وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد * سفينته الدنيا فاياك تعطب
وتعلم ان الموت ينقض مسرعا * عليك بقينا طعمه ليس يعذب
كأنك توصى واليتامى تراهم * وأمهم الثكلى تنوح وتندب
وأقبل بالاكفان نحوك قاصد * وحث عليك الترب والعين تسكب

﴿وأنشدوا﴾

تزود من معاشك للمعاد * وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيرا * فان المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم * لهم زاد وأنت بغير زاد

﴿وقال آخر﴾

اذا أنت لم ترحل بزاد من التقى * ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله * وانك لم ترصد كما كان أرصدا

﴿وقال آخر﴾

الموت لابد آت فاستعد له * ان اللبيب بذكر الموت مشغول
وكيف يلهو بعيش أو يلذ به * من التراب على خديه مجعول

﴿وأنشدوا﴾

ولدتك اذ ولدتك أمك باكيا * والقوم حولك يضحكون سرورا
فاعمل ليوم أن تكون اذا بكوا * في يوم موتك ضاحكا مسرورا

﴿وروى﴾ عن الحسن انه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله فقال قصروا آمالكم وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء وقال أبو زكريا التيمي بينما هشام بن عبد الملك في المسجد الحرام اذ أتى بحجر مكتوب باللسان العجمي فطاب من يقرؤه فأتى بوهب بن منبه رحمه الله تعالى فقرأه فاذا فيه يا ابن آدم انك لو رأيت قرب ما بقي من أجلك لزهدت في طول املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك غدا ندمك وقد زلت بك قدمك واسلمك أهلك وحشمك ففارقك الولد والقريب ورفضك الوالد والنسيب فلا أنت لدنياك عائد ولا في حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة ﴿وقد روى﴾ عن عمر مولى غفرة في قوله تعالى وكان تحته كنز لهما ان الكنز كان لوحا من ذهب قد كتب فيه عجبا للموقن بالرزق كيف يتعب وعجبا للموقن بالحساب كيف يغفل وعجبا للموقن بالموت كيف يفرح ﴿وروى﴾ عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال ما من صباح ولا مساء الا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وقال شهيم مولى ابن تميم جاست الى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل علي فقال أرحني من حاجتك فاني أبادر فقلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال فقمت

عنه ومامثل السوق الطويل الامل والموفق الذى استشعر قرب الاجل الا كالملك كتب الى رجل من عبيده يقول له افعل كذا وكذا وأصلح كذا وكذا وانتظر رسولى فلانا فانى سأبعثه اليك ليأتينى بك واياك ثم اياك ٧ الاوقد فرغت من أشغالك وتخلصت من أعمالك ونظرت فى زادك وأخذت ماتحتاج اليه فى سفرك وان لم تفعل ماأمرتك أحللت بك عقابى وأحللت عليك سخطى وعذابى وأمرته أن يأتينى بك مغلولة يداك مقيدة رجلاك مشمتا بك أعدائك مسحوبا الى دار خزيى وهوانى وماأعددته لمن عصانى وان هو وجدك قد فرغت من أعمالك وقضيت جميع أشغالك أتى بك مكرما معززا فعارفها الى دار رضوانى وكرامتى وماأعددته من الكرامة لمن امتثل أمرى وعمل بطاعتى واحذر أن يخدعك فلان أوفلانة عن امتثال أمرى والاشتغال عن طاعتى وكتب الى رجل آخر بمثل ذلك فأما الرجل الاول فكان مخدوعا من قبل النفس والشيطان فقال هذا كتاب الملك يأمرنى فيه بكذا وكذا وذكر لى ان رسوله يأتينى ليحملنى اليه ولم يبين لى الوقت الذى يبعثه الى فيه ولعل رسوله لا يأتينى الا الى خمسين سنة أو أكثر فأناعلى مهل وسأنظر فيما أمرنى ولم يقع كتاب الملك منه بذلك الموقع فاغتر فسوف وقال والله لقد أتى كتابه الى خلق كثير بمثل ماأتانى ولم يأتهم رسوله الا بعد سنين كثيرة فأنا واحد منهم ولعل رسوله يتأخر عنى كما تأخر عنهم ثم أقبل على اشتغال نفسه بما لا يحتاج اليه وترك أوامر الملك وأعرض عنها وكلما دخلت سنة قال أنا مشغول فى هذه السنة وسأنظر فى السنة المقبلة والمسافة أمامى طويلة ثم جعل كلما دخلت سنة سوف وقال سأنظر فبينما هو على ذلك من تسويفه واغتراره بطول أمله اذ فجأه رسول الملك فى صورة المغضب عليه فكسر بابه وهتك حجابه وحصل معه فى جوف بيته وقال له اجب الملك فقال الرجل والله لقد جاءنى كتاب الملك فسوفت ولم أفعل ماأمرنى به فقال له الرسول ويلك وما الذى أبطأ بك عن امتثال ماأمرك به الملك قال لم أكن أظن انك تأتينى فى هذا الوقت فقال له ويلك ومن أين لك هذا الظن ومن أخبرك به ومن أعلمك بأنى لا آتيك الا فى الوقت الذى تظن قال ظننت ذلك ظنا وطمعت وسولت لى نفسى ومنتنى وخدعنى الشيطان والنفس فانخدعت فقال له ويلك ألم يحذرك الملك فى كتابه منهما وأمرك أن لا تسمع لهما قولا قال بلى والله لقد جاءنى هذا فى كتابه ولكننى خدعت وفتنت فافتتنت فقال له ويلك غرك الغرور أجب الملك لا أم لك قد حل بك الهوان وأحاطت بك الزبانية والاعوان وسترى من العذاب ألوانا بعد ألوان بطاعتك للنفس والشيطان فقال له أنشدك بحق الملك الا ماتركتنى حتى أفعل ماأمرنى به الملك فقال هيهات ليس الى ذلك من سبيل ثم دفعه دفعة ألقاه على وجهه ثم جمع يديه مغلولتين الى عنقه وانطلق به يجره على وجهه وأحاطت به الزبانية من كل جهاته قد اشتد غضبهم لغضب الملك عليه فلا يمرون به على محفل الا وأخبروهم بعصيانه وموجبات هوانه فلا تسأل عن سوء حاله وشدة مايلقاه من انكاله وويال سوء عصيانه يقصر اللسان عن وصف مايلقاه من العذاب بسبب المخالفة والعصيان وأما الآخر الموفق الذى كتب اليه الملك بمثل ماكتب به الى هذا البائس فانه لما جاءه كتاب الملك أخذه بكلتا يديه وقبله وفرح به وجعل يقرؤه ويتصفحه ويتدبره ويعظمه ويقول أرى الملك قد كتب الى ان أعمل له كذا وكذا ومن أين سبقت لى هذه السابقة عند الملك ومن الذى عنى بى عنده ومن الذى أنزلنى منه بهذه المنزلة حتى جعلنى من خدامه والقائمين بأمره والناظرين فى أعماله والله ان هذه لسعادة ونعمة لا أقدر على القيام بشكرها ووالله ان هذه لعناية الحمد لله رب العالمين ثم نظر فى الكتاب فقال واسمع الملك يقول لى فى كتابه وانتظر رسولى فانى سأبعثه اليك ليأتينى بك وأراه لم يحد لى وقت اتيانه الى ولعلى لا أفرغ من قراءة كتابه الا ورسوله قد أتانى ونزل على والله لا قدمت شغلا على شغل الملك ولا أنظر فى شئ الا بعد فراغى مما أمرنى به الملك وأعد زادا وأركبه وما أركبه اذا جاءنى رسوله ليحملنى اليه ثم لما فرغ من قراءة الكتاب سارع الى شغل الملك وامتثل مافى كتابه بفرح وسرور واشتياق الى زيارة الملك اذا قدم عليه رسوله فلما أخذ فى اشغال الملك جاءه فلان أوفلانة وقال له هون عليك الامر ولم هذه المسارعة كلها وفيم هذه المبادرة فقال له ويلك اذهب عنى أما ترى

كتاب الملك بما جاءني فقال نعم رأيته ولكنه لم يعين لك وقت مجيء الرسول وقد جاء كتابه الى فلان بهذا الذي جاءك وقد بقي منتظرا لرسوله أكثر من سبعين سنة وفلان أتاه رسوله بعد ثمانين سنة وفلان وفلان وأنت واحد منهم فلم هذه العجلة فقال له ويلك أتدلني على الغرور وماترى أنت فلانا قد جاءه كتاب الملك بهذا الذي جاءني وجاءه الرسول اثر مجيء الكتاب وفلان كذلك وفلان كذلك وفلان وفلان ممن لا يحصى كثرة فدعني من غرورك وشرك ثم أقبل على ما أمره به الملك وامتثل بقدر وسعه وطاقته وأعد ما ينبغي من الزاد لسفره وجعل ينتظر الرسول أن يأتيه ويفرح بالسفر الى حضرة الملك لما يأمله من فضل الملك واحسانه حسبما وعده في كتابه فبينما هو كذلك مشغول بخدمة الملك واذا هو برسول الملك قد أتاه بخلع الملك وأنواع التحف والهدايا والبشرى برضا الملك عنه فسلم عليه وبشره باقبال الملك عليه وان له عنده المنزلة الرفيعة وانه محبوب عند أهل حضرته وانهم منتظرون لقدومه وقال له أجب على بركة الله الملك وارتحل اليه مكرما ومعظما قال نعم قال الساعة قال بسم الله فخلع عليه خلعة الاولياء وكساه كسوة الاصفياء وأعطاه مركوبا يليق به ويحمل لمثله وانطلق به في حبور وسرور الى حضرة الملك فهذا مثل حال الناس في الدنيا فمنهم بائس مفرط مغرور ومنهم مقبل على آخرته في حبور وسرور ومنتقل الى جنة مشتملة على مالا تكيفه العقول من أنواع الخيرات والحور والقصور

﴿فصل﴾ وخطب بعض الخلفاء يوما فقال عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا واعلموا أن الدنيا ليست لكم بدار قرار واستعدوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جد بكم وان غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة وان غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لجدير بسرعة الاوبة وان قادما يتقدم بالفوز أو بالشقوة لمستحق بأفضل العدة فاتقى عبد ربه ونصح نفسه وغلب شهوته وقدم توبته فان أجله مستور عنه وامله خادع له والشيطان موكل به يمنيه التوبة ليسوفها ويزين له المعصية ليرتكبها حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها وان ما بين أحدكم وبين الجنة والنار الا الموت أن ينزل به فيالها من حسرة على ذي غفلة ان يكون عمره عليه حجة وان تؤديه أيامه الى شقوة جعلنا الله واياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن الطاعة معصية ولا تحل به بعد الموت حسرة انه سميع الدعاء فعال لما يشاء * وذكر أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه روضة المشتاق والطريق الى الملك الخلاق انه ما من يوم تطلع شمسه الا وملك ينادي يا أبناء الاربعين هذا وقت الزاد أذهانكم حاضرة وأعضاؤكم قوية شداد يا أبناء الخمسين قد دنا الاخذ والحصاد يا أبناء الستين نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فمالكم من نصير أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أعذر الله الى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة يقال أعذر في الامر أي بالغ فيه قال البخاري وجاءكم النذير يعني الشيب قلت هذا أحد الاقوال وقال الجمهور النذير الانبياء وسيأتي ان شاء الله تعالى لهذا مزيد بيان قال القرطبي وردفي الخبر أن بعض الانبياء صلوات الله على نبينا وعليه قال لملك الموت عليه السلام أمالك رسول يا ملك الموت تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر من مجيئك قال نعم لي والله رسل كثيرة من الاعلال والامراض والشيب والهرم وتغير السمع والبصر قال القرطبي وأكبر الاعذار بعثة الرسل ثم الشيب أو غيره كما تقدم وجعل الله سبحانه الستين غاية الاعذار لان الستين قريب من معترك المنايا وهو سن الانابة والخشوع والاستسلام لله سبحانه وترقب المنية ولقاء الله ففيه اعذار بعد اعذار وانذار بعد انذار الاول بالنبي صلى الله عليه وسلم والثاني بالشيب وذلك عند كمال الاربعين قال الله تعالى وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي الآية فذكر سبحانه ان من بلغ الاربعين فقد آن له أن يعلم مقدار نعم الله عليه وعلى والديه ويشكرها قال مالك رحمه الله تعالى أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدنيا ويخالطون الناس حتى يأتي لاحدهم أربعون سنة فاذا أتت عليهم اعتزلوا الناس قلت ونحو هذا عن مالك في المدخل لابن الحاج ولفظه قال مالك أدركت الناس وهم يتعلمون

العلم الى ان يصل أحدهم الى الاربعين فينقطع للعبادة و يطوى فراشه وحدث أبو بكر بن الخطيب بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا بلغ العبد أربعين سنة امنه الله تعالى من البلايا الثلاث الجنون والجذام والبرص فاذا بلغ خمسين سنة خفف عنه الحساب فاذا بلغ ستين سنة رزقه الانابة اليه لما يحب فاذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفع في أهل بيته وناداه منادمن السماء هذا أسير الله في أرضه وحدث بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله يستحي أن يعذب عبدا وأمته اذا أسنا في الاسلام وقد أنشدوا

ان الملوك اذا شابت عبيدهم * في رقهم اعتقوهم قصدا بارار
وأنت يا مالكي أولى بذا كرما * قد شبت في الرق فاعتقني من النار

وقد أكثر الناس من التحذير من طول الامل لان به يقع التسويف في العمل فرحم الله عبدا قصر من أمله قبل حلول أجله وأخذ من يومه وأمسه ما يستضيء به في ظلم رمسه وقد روينا في جامع الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا ان سلعة الله غالية ألا ان سلعة الله الجنة قال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذهب ثلث الليل قام فقال يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه جاء الموت بما فيه الحديث رواه الترمذي

﴿باب في ذكر الموت والوفاة ومصير الارواح بعد الممات وما يستحب من أحوال المحتضرين وفي حسن الظن بالله تعالى وتلقين الشهادة وتأنيس المحتضر باحاديث الرجاء ليحسن ظنه بربه سبحانه﴾

قال الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله تعالى في كتاب التوهم افهم ما اصف لك وفرغ فيه للفكرة عقلك وأدم له فهمك واشتغل بذكره يقطع كل مذكور سواه ومتوهم غيره فالعجب منك كيف تقر عينك أو يزايل الوجد قلبك وقد عصيت ربك والموت لاصحالة نازل بك بكربه وغصصه ونزعه وسكراته فكأنه قد نزل بك وشيكا فتوهم نفسك وقد صرعت للموت صرعة لا تقوم منها الا الى الحشر الى ربك فتوهم نفسك وقد بدا لك الموت فجذب روحك من قدميك فوجدت ألم جذبه وقلبك وجل محزون منتظر للبشرى من ربك بالرضا أو بالسخط فبينما أنت في كربك وغمومك وألم أوجاعك اذ نظرت الى صفحة وجهك الموت في أحسن صورة أو أقبحها وقد تعلق قلبك بما يفوتك من البشرى اذ سمعت صوته أبشر يا ولي الله برضائه أو ابشر يا عدو الله بسخط الله وغضبه فتستيقن حينئذ بفوزك ونجاتك أو بعطبك وهلاكك فتوهم حينئذ وقد استطار قلبك فرحا وسرورا أو ملئ غما وحزنا قال الغزالي وعبد الحق اعلم ان المستحب من حال المحتضر عند الموت ان يكون منه الهدو والسكون ومن لسانه النطق بالشهادتين ومن قلبه حسن الظن بالله تعالى واعلم ان المطيع لله سبحانه يرى ملك الموت في أحسن صورة وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت هل تستطيع ان تريني الصورة التي تقبض بها روح المؤمن قال نعم فاصرف وجهك عني فصرف وجهه ثم نظر اليه فاذا هو بشاب حسن الوجه حسن الثياب طيب الرائحة فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت من السرور شيأ الا وجهك لكفاه ثم قال له أرني كيف تقبض روح الكافر فقال له لا تطيق ذلك قال بلى أرني قال اصرف وجهك عني فصرف وجهه عنه ثم نظر اليه فاذا صورة انسان اسود زرقاء في الارض ورأسه في السماء كأقبح ما أنت رائ من الصور تحت كل شعرة من جسده لهيب نار فقال له والله لو لم يلق الكافر سوى نظره الى شخصك لكفاه فارغب رحمك الله الى مولاك ان يجعلك في زمرة أوليائه واجتهد في خدمته عساه أن يلحقك باصفيائه خرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله

تبارك وتعالى قال من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب الى عبدى بشئ أحب الى مما افترضت عليه ومازال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شئ أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته فتأمل رحمك الله هذا الكلام العظيم من المولى الغنى الكريم فسبحانه ما أرحمه بعباده فلو لم يكن الا هذا الحديث فى باب الرجاء لكان كافيا نسأله جل قدرته أن يجعلنا من أوليائه الموفقين لخدمته الساعين فى مرضاته قال النزالى ومما يراه الميت عند شخوص بصره الملائكة الكرام الحافظون قال وهب بن منبه بلغنا انه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله فان كان مطيعا قالا له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلستنا ورب عمل صالح أحضرتنا وان كان فاجرا قالا له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح قد أحضرتنا وكلام قبيح قد أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك حين شخوص الميت اليهما ولا يرجع الى الدنيا انتهى كلام الغزالى ومن كتاب روضة الحقائق المنسوب للفقيه أبى عبد الله بن الحلال قال وروى انه اذا نزل الموت بالمؤمن ودعه ملكاه اللذان كانا يكتبان حسناته فيقولان جزاك الله عنا خيرا فلقد كنت تملى علينا خيرا وستلقى خيرا وأما الكافر أو الفاجر فيقولان لا جزاك الله عنا خيرا فلقد كنت تملى علينا شرا فستلقى شرا ويمثل له عمله يوم القيامة اسود قبيحا فيأخذ به كل وعر وظلمة فيقول له بئس الصاحب أنت فيقول له أما تعرفنى فيقول له ما أعرفك غير أنى أراك صاحب سوء فيقول له أنا عملك كان قبيحا فى الدنيا اسود فلذلك ترانى اسود قبيحا كنت أحملك فى الدنيا فاحملنى اليوم أنت فيركبه هو وقوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم الآية وتتلقاه عند خروج روحه ملائكة العذاب ويقولون لا مرحبا بهذه النفس الخبيثة فتغلق دونه أبواب السماء ويقول الجبار سبحانه اذهبوا به الى أمه الهاوية وأروه مقعده من النار الحديث وسيأتى لهذا مزيد بيان ان شاء الله تعالى وروى ابن المبارك فى رقائقه بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا فنيت أيام الدنيا عن هذا العبد المؤمن بعث الله الى نفسه من يتوفاها قال فتقال صاحباه اللذان يحفظان عمله ان هذا قد كان لنا أخا وصاحبا وقد حان اليوم منه فراق فاذنوا لنا أو قال دعونا نثن على أخينا فيقال أثنيا عليه فيقولان جزاك الله خيرا ورضى عنك وغفر لك وأدخلك الجنة فنعم الاخ كنت والصاحب ما كان أيسر مؤنتك وأحسن معونتك على نفسك ما كانت خطاياك تمنعنا أن نصعد الى ربنا فنسبح بحمده ونقدس له ونسجد له ويقول الذى يتولى نفسه أخرجى أيتها الروح الطيبة الى خير يوم مر عليك فنعم ما قدمت لنفسك أخرجى الى الروح والريحان وجنات النعيم ورب عليك غير غضبان واذا فنيت أيام الدنيا عن العبد الكافر بعث الله الى نفسه من يتوفاها فيقول صاحباه اللذان كانا يحفظان عليه عمله ان هذا قد كان لنا صاحبا وقد حان منه فراق فاذنوا لنا ودعونا نثن على صاحبنا فيقال أثنيا عليه فيقولان لعنة الله وغضبه عليه ولا غفر له وأدخله النار فبئس الصاحب ما كان أشد مؤنته وما كان يعين على نفسه ان كانت خطاياه وذنوبه لتمنعنا ان نصعد الى ربنا فنسبح له ونقدس له ونسجد له ويقول الذى يتوفى نفسه أخرجى أيتها الروح الخبيثة الى شر يوم مر عليك فبئس ما قدمت لنفسك اخرجى الى الحميم وتصلية الجحيم ورب عليك غضبان قال عبد الحق اعلم ان الانسان لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من احدى الدارين وصحبه من أحد الفريقين قال ويروى انه ما من ميت يموت الا ويكلمه ملكاه اللذان يكتبان عمله فى الدنيا فان كان مطيعا قالا له جزاك الله من صاحب خيرا فرب كلام حسن قد أسمعتناه ورب مجلس خير قد أجلستناه ورب عمل صالح قد أحضرتناه فنحن لك اليوم على ما تحب وان كان فاجرا قالا له جزاك الله من صاحب شر فرب كلام قبيح قد أسمعتناه ورب مجلس سوء قد أجلستناه ورب عمل سوء قد أحضرتناه فنحن لك على ما تكره قلت ورأيت فى بعض كتب التذكير ما نصه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال اذا قبض الله سبحانه روح العبد المؤمن صعد ملكاه الى السماء فقالا ربنا وكلتنا بعبدك المؤمن نكتب

عمله وقد قبضت روحه اليك فأذن لنا ان نصعد الى السماء فيقول الله تبارك وتعالى سمائي مملوأة بملائكتي يسبحونني فيقولان ائذن لنا أن نسكن في الارض فيقول عز وجل أرضي مملوأة من خلقي فيقولان ربنا اين نكون فيقول عز وجل قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني وهللاني واكتبا ذلك للعبد الى يوم القيامة وهذا الحديث رواه أبو نعيم في الحلية بهذه الالفاظ وفيه ولكن قوما على قبر عبدي فسبحاني وهللاني وكبراني الى يوم القيامة واكتباه لعبدي رواه مسعر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الغزالي لن تخرج روح عبد حتى يسمع نغمة ملك الموت باحدى بشريين اما أبشر يا عدو الله بالنار واما أبشر يا ولي الله بالجنة وعن هذا كان خوف أرباب القلوب والالباب وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار وقال صلى الله عليه وسلم من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذلك كذلك ان المؤمن اذا فرح له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه قلت هذا الحديث في الصحيح وفي البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه فقالت عائشة أو بعض أزواجه انا لنكره الموت فقال ليس ذلك ولكن المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب اليه مما امامه فاحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وان الكافر اذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره اليه مما امامه وكره لقاء الله فكره الله لقاءه وأخرجه أيضا مسلم وابن ماجه من حديث عائشة وابن المبارك من حديث أنس رضي الله عنهم قال الغزالي قال الحسن لا راحة للمؤمن الا في لقاء ربه عز وجل ومن كانت راحته في لقاء الله فيوم موته يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه قلت وهذا كلام حسن عليه نور وقال وروى جعفر ابن محمد عن أبيه قال نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ملك الموت عند رأس رجل من الانصار فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ارفق بصاحبي فانه مؤمن فقال ملك الموت عليه السلام يا محمد طب نفسا وقر عينا فاني بكل مؤمن رفيق واعلم أنه ما من أهل بيت مدر ولا شعر في بر ولا بحر الا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى لانا أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم والله يا محمد لو اني أردت ان أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها قال جعفر بلغني أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ذكره الماوردي قال صاحب روضة الحقائق وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال والذي نفسي بيده ملك الموت أشد تلطفا بروح المؤمن وأكثر محافظة من الوالدة على ولدها حين ترضعه ثم ذكر انه عند خروج روحه يفوح عنه أطيب من ريح المسك وتتباشر به الملائكة ويقولون اللهم صل عليه من روح طيب وصل على جسد خرج منه ثم يدفعونه الى الملائكة فيصعدون به الى السماء ولله سبحانه خلق في الهواء لا يعلمهم الا خالقهم فيفوح لهم منه ريح أطيب من المسك فيصلون عليه ما بين الارض والسماء وتفتح له أبواب السماء ويصلي عليه ملائكة كل سماء حتى يوقف بين يدي الله سبحانه فيقول سبحانه مرحبا بالنفس الطيبة والجسد خرجت منه واذا قال الجبار جل جلاله مرحبا بك ترحب به كل شيء ويذهب عنه كل ضيق ويقول سبحانه اذهبوا بهذه الروح الطيبة فاروها مقعدها من الجنة وما أعددت لها من النعيم المقيم قال وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا أراد الله سبحانه قبض روح وليه قال يا ملك الموت اذهب فائتني بروح عبدي فحسبي من عمله فقد أعطيته فوجدته شاكرا وابتليته فوجدته صابرا فحسبي من عمله اذهب أنت وأعوانك ستجده سالما مطيعا اذا كرام مستعدا فيأتيه ملك الموت وقد دخل التقي قلبه فيقول له ملك الموت يا ولي الله ارتحل من عموم الدنيا فانه لن يعتريك غم بعد هذا أبدا هذا آخر ما عليك ثم تحتوشه الملائكة بريحان الجنة يقولون أخرجي أيتها النفس المطمئنة الى روح وريحان ورب راض عنك غير غضبان اخرجي فنعم ما قدمت فتخرج بأطيب رائحة مسك ما وجدها أحدكم قط وعلى أرجاء السماء ملائكة فيقولون سبحان الله جاء اليوم من الارض روح طيب ونسمة طيبة فلا يمر بباب الا فتح له ولا بملك الا وصلى عليه

ويشفع له حتى يؤتى به الرحمن سبحانه فتسجد له الملائكة ويقولون يارب هذا عبدك فلان قد توفيناه وأنت أعلم فيقول مروه بالسجود فتسجد النسمة ثم يدعو ميكائيل فيقول له اذهب بهذه النسمة الحديث وسيأتي بعد هذا ان شاء الله تعالى وقال الغزالي في الاحياء روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله تعالى اذا رضي عن عبده قال يا ملك الموت اذهب الى فلان فأتني بروحه لا يحسبني من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان فاذا نظر اليهم ابليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول جنوده مالك يا سيدنا فيقول أما ترون ما اعطى هذا العبد من الكرامة أين كنت عنه فيقولون قد جهدنا به فكان معصوما قوله صلى الله عليه وسلم ولكن المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شئ أحب اليه مما امامه فاحب لقاء الله فاحب الله لقاءه الحديث قال الشيخ الولي ابن أبي جمرة رضي الله عنه في هذا الحديث دليل على تهوين الموت على المؤمن يؤخذ ذلك من فرحه بما امامه مما يبشر به من رضا مولاه عنه واحسانه له فانه من فرح بشئ هان عليه ما يلقى عليه أو دونه من الشدائد وهذا ندركه حسا في أهل الدنيا فانهم ما حملوا فيها من المشاق والشدائد الا لفرحهم بها وحبهم لها فكيف بذلك الفرح الذي ليس مثله فرح جعلنا الله من أهله بفضله آمين انتهى كلام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى وأعاد علينا من بركاته وبركات أمثاله في كلامه عليه نور قلت وروى ابن المبارك في رقائقه عن محمد بن كعب القرظي قال اذا استقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك وقال القرطبي جاءه ملك الموت فقال السلام عليك يا ولي الله يقرأ عليك السلام ثم نزع بهذه الآية الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم قال القرطبي في تذكرته وقال ابن مسعود اذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى تحيتهم يوم يلقونه سلام قال يسلم ملك الموت على المؤمن عند قبض روحه لا يقبض روحه حتى يسلم عليه

﴿فصل﴾ في حسن الظن بالله سبحانه وتلقين الميت قال عبد الحق أما حسن الظن بالله عز وجل فواجب وقد خرج مسلم والبخاري في صحيحهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاثة أيام يقول لا يموتن أحدكم الا وهو يحسن بالله الظن وفي رواية الا وهو حسن الظن بالله قال القرطبي وذكره ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله عز وجل وزاد فيه فان قوما أرداهم سوء ظنهم وقال لهم تبارك وتعالى وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين وروى ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا أعطاه الله ما يرجوه وأمنه مما يخافه وذكره ابن أبي الدنيا أيضا وخرجه الترمذي وقال حديث غريب وذكر الترمذي الحكيم في نوادر الاصول بسنده عن الحسن انه قال بلغني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال قال ربكم عز وجل لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة ومن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة وخرجه البزار أيضا عن الحسن قال البزار وحدثني محمد بن يحيى قال حدثنا عبد الوهاب حدثنا محمد بن عمر وعن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله وأسند الترمذي الحكيم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يذكر من مناجاة موسى عليه السلام أنه سبحانه قال يا موسى لن يلقاني عبد في حاضر القيامة الا فتشته عما في يديه الا ما كان من الورعين فاني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم فأدخلهم الجنة بغير حساب فمن استحيا من الله تعالى في الدنيا مما صنع استحيا الله سبحانه من تفتيشه وسؤاله ولم يجمع عليه حياءين كما لا يجمع عليه خوفين انتهى قال القرطبي وحسن الظن بالله تعالى ينبغي أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه في حال الصحة وهو ان الله تعالى يرحمه ويتجاوز عنه ويغفر له وينبغي

لجلسائه ان يذكروه بذلك وقد روى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال يقول الله تبارك وتعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه اذا ذكرنى الحديث وجاء فى حديث آخر أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء قال القرطبى وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا يموتن أحدكم حتى يحسن الظن بالله فان حسن الظن بالله ثمن الجنة وروى عن عمر رضى الله عنه انه قال عمود الدين وغاية مجده وذروة سنامه حسن الظن بالله فمن مات منكم وهو يحسن الظن بالله دخل الجنة مدلا وقال ابن مسعود رضى الله عنه والله الذى لا اله غيره لا يحسن أحد الظن بالله الا أعطاه الله ظنه وذلك ان الخير بيده وقال ابن المبارك أخبرنا سفيان أن ابن عباس رضى الله عنهما قال اذا رأيتم بالرجل الموت فبشروه ليلقى ربه وهو حسن الظن به واذا كان حيا فخوفوه وحدث ابن أبى الدنيا بسنده عن المعتمر بن سليمان قال قال لى أبى حين حضرته الوفاة يا معتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله وأنا حسن الظن به وحدث بسنده عن حصين بن ابراهيم قال كانوا يستحبون أن يلقن العبد محاسن عمله عند الموت حتى يحسن ظنه ربه عز وجل وكان يحيى بن زكريا اذا لقى عيسى بن مريم صلوات الله على نبينا وعليهما عبس واذا لقيه عيسى تبسم فقال له عيسى تلقانى عابسا كأنك يائس فقال له يحيى تلقانى ضاحكا كأنك آمن فأوحى الله تبارك وتعالى ان أحبكما الى أحسنكما ظنا بى ذكره الطبرى وقال زيد بن أسلم يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال انطلقوا به الى النار فيقول يارب أين صلاتى وصيامى فيقول الله تعالى اليوم أقنطك من رحمتى كما كنت تقنط عبادى من رحمتى وفى القرآن ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون وروى أبو بكر بن الخطيب بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أمة الا بعضها فى الجنة وبعضها فى النار الا أمتى فانها فى الجنة وهذا حديث لم يذكر ابن الخطيب فيه مطعنا بوجه فهو ثابت وحدث ابن الخطيب بسنده عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من أصبح لا ينوى ظلم أحد أصبح وقد غفر الله له ما جنى وحدث ابن الخطيب بسنده عن أنس رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من حسن عبادة المرء حسن ظنه وحدث أبو بكر بسنده المتصل عن أبى بكر بن عمارة بن رويبة قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول لن يلج أى لن يلج النار رجل صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فقال له رجل من أهل البصرة أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال عبد الحق ولولا حسن الظن بالله عز وجل لهلك الخلق ومرض اعرابى فقيل له انك تموت فقال فاذا مت فأين يذهب بى فقالوا الى الله سبحانه قال وما أكره أن يذهب بى الى من لا يرى خيرا الا من عنده وروى أبو نعيم فى حليته عن سفيان الثورى انه قال أتيت أبا حبيب البدوى أسلم عليه ولم أكن رأيته فقال لى أنت سفيان الثورى الذى يقال قال قلت نعم نسأل الله تعالى بركة ما يقال فقال لى يا سفيان ما رأينا خيرا قط الا من ربنا سبحانه قلت أجل قال فانا نكره لقاء من لم ير خيرا قط الا منه ثم قال يا سفيان منع الله عطاء وذلك انه لا يمنع من بخل ولا عدم وانما منعه نظرا واختيارا ثم قال يا سفيان ان فيك لأنسا ومعك شغلا ثم أقبل على شأنه وتركنى وروى بعض أصحاب الحسن بن هانئ انه رآه بعد موته فى النوم فقال له ما فعل الله بك فقال غفر لى قلت بماذا قال بأربعة أبيات قلتها هى فى طى الفراش فمشى الرجل الى دار الحسن فالتمسها فى الفراش فوجدها وهى

يارب ان عظمت ذنوبى كثرة * فلقد علمت بأن عفوك أعظم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا * فاذا رددت يدى فمن ذا يرحم
ان كان لا يرجوك الا محسن * فمن الذى يرجو المسىء المجرم
مالى اليك وسيلة الا الرجا * وجميل ظنى ثم انى مسلم

وعن مالك بن دينار انه قال رأيت مسلم بن يسار فى النوم بعد موته بسنة فسلمت عليه فلم يرد على السلام فقلت له

لم لا ترد على السلام قال فكيف أرد السلام عليك وأنا ميت فقلت له وماذا لقيت بعد الموت قال ودمعت عينا مالك عند هذا القول فقال لقيت أهوالا وزلازل وعظائم وشدائد قال مالك فقلت له فما كان بعد ذلك قال وما تراه يكون من الكريم الا الكرم قبل منا الحسنات وغفر لنا السيآت وضمن عنا التباعات كما كان حسن الظن به قال ثم شهق مالك شهقة خر مغشيا عليه فلبث فى غشيته أياما مريضا ثم مات من مرضه ذلك وكان يقال ان قلبه انصدع وهكذا ذكر عبد الواحد بن زيد الحكاية وانه بحضرته وقع لمالك هذا وقال أبو عمر الضرير حدثنى سهل أخو حزم قال رأيت مالك بن دينار فى النوم بعد موته بسنة فقلت له أبا يحيى ماذا قدمت به على الله سبحانه قال قدمت عليه بذنوب كثيرة فمحاها حسن ظنى به سبحانه وقال عمار بن سيف رأيت الحسن بن صالح فى منامى بعد موته فقلت له لقد كنت متمنيا للقائك فماذا عندك أخبرنا بما عندك فقال لم أر شيأ مثل حسن الظن بالله سبحانه ودخل واثلة بن الاسقع رضى الله عنه على رجل فوجده فى الموت فقال له أخبرنى كيف ظنك بالله تعالى فقال الرجل أغرقتنى ذنوبى وأشرفت على الهلكة ولكن أرجو رحمة الله تعالى فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ماشاء قلت وحسن الظن بالمولى سبحانه هو رأس مال العبد ولما تكلم ابن أبى جمرة رضى الله عنه على الحذر من القنوط وان من وقعت به مصيبة وكثرت عليه فلا يقنط فيها ولا ييأس فيستحق العذاب لقوله صلى الله عليه وسلم اخبارا عن ربه عز وجل يقول لو كنت معجلا عقوبة لعجلتها على القانطين من رحمتى قلت وهذا فيه غاية الرجاء سبحان من لا نهاية لفضله جعلنا الله ممن من عليه بخيرى الدنيا والآخرة ويروى عن الحسن بن الليث قال رأيت محمد بن محمد الرازى فى المنام فقلت له يا أبا عبد الله ما فعل الله بك قال غفر لى قلت بم قال برجائى له منذ ثمانين سنة

﴿فصل﴾ وقد قدمنا أنه ينبغى لجلساء المريض أو المحتضر ان يحدثوه بأحاديث الرجاء ليموت وهو حسن الظن بالله سبحانه وأنا أذكر ان شاء الله تعالى من ذلك جملة صالحة يذكر منها ما تيسر عند المحتضر قال الغزالى رحمه الله تعالى فى كتاب الرجاء اعلم ان العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لان أقرب العباد الى الله سبحانه أحبهم له وليس وراء المحبة مقام والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك وردفى الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما عند الموت قال ابن عطاء الله فى لطائف المنن قال الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله طالعت مقام الرحمة فاذا على يقال لى والله ليكونن من رحمة الله غدا يوم القيامة ما ينال منها ابن أبى الطواجن وكان ابن أبى الطواجن هذا قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبى الحسن الشاذلى رحمه الله تعالى قال أبو نعيم فى الحلية روى مسعر بن كدام عن عطية قال كنت مع ابن عمر رضى الله عنهما جالسا فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن لوددت انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ابن عمر فكنت تصنع ماذا فقال كنت والله أومن به وأقبل بين عينيه فقال له ابن عمر أفلا أبشرك قال بلى يا أبا عبد الرحمن قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما اختلط حبى بقلب عبد فأحبنى الا حرم الله جسده على النار الحديث قال الغزالى وحال الرجاء يغلب بفنين * أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات والاخبار أما الاعتبار فهو ان يتأمل الانسان جميع ما أنعم الله به سبحانه على عباده من أنواع النعم ولطفه بعباده فى الدنيا وعجائب حكمته التى أبدعها فى خلقة الانسان حتى أعده له فى الدنيا كل ما هو ضرورى له فى دوام وجوده وما هو محتاج اليه وما هو زينة له كتقويس الحاجبين واختلاف أنواع العينين وحمرة الشفتين حتى لم يرض سبحانه أن تفوتهم الزوائد والمزايا فى الزينة والحاجة كيف يرضى سبحانه بسياقتهم الى الهلاك المؤبد واذا كان حال أكثر الخلق فى الدنيا الغالب عليهم السلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا فالغالب أن أمور الآخرة هكذا تكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو سبحانه غفور رحيم لطيف

بعباده متعطف عليهم ومن الاعتبار أيضا النظر فى حكمة الشريعة وسنتها فى مصالح الدنيا ووجه الرحمة على العباد بها حتى كان بعض العارفين يرى آية المداينة فى البقرة من أقوى أسباب الرجاء فقيل له ومافيها من الرجاء فقال الدنيا كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل من رزقه فانظر كيف أنزل الله فيه أطول آية ليهدى عبده الى طريق الاحتياط فى حفظ دنياه فكيف لايحفظ عليه دينه الذى لاعوض له منه * الفن الثانى استقراء الآيات والاخبار فيما ورد فى الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم يغفر الذنوب جميعا ولا يبالى انه هو الغفور الرحيم وقال تعالى والملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الارض وأخبر تعالى ان النار أعدها لاعدائه الكافرين وانما خوف بها أولياءه فقال ذلك يخوف الله به عباده وقال فأنذرتكم نارا تلظى لايصلاها الا الاشقى الذى كذب وتولى وقال تعالى وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وروى ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل فى أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية وان ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وفى تفسير قوله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى قال لا يرضى محمد وأحد من أمته فى النار وأما الاخبار فقد روى أبو موسى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أمتى أمة مرحومة لاعذاب عليها فى الآخرة عجل عقابها فى الدنيا الزلازل والفتن فاذا كان يوم القيامة دفع الى كل رجل من أمتى رجل من أهل الكتاب فقيل له هذا فداؤك من النار وفى لفظ آخر يأتى كل رجل من هذه الامة بيهودى أو نصرانى الى جهنم فيقول هذا فدائى من النار فيلقى فيها وقال صلى الله عليه وسلم ما من عبد مؤمن تخرج من عينيه دموع وان كانت مثل رأس الذباب من خشية الله عز و جل ثم تصيب شيأ من حر وجهه الا حرمه الله على النار وقال صلى الله عليه وسلم الحى من فيح جهنم وهو حظ المؤمن من النار وروى فى تفسير قوله تعالى يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه أن الله تعالى أوحى الى نبيه انى أجعل حساب أمتك اليك فقال لا يارب أنت خير لهم منى قال اذا لا أخزيك فيهم وروى عن أنس رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم سأل ربه فى ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم الى لئلا يطلع على مساويهم غيرى فأوحى الله تعالى اليه هم أمتك وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم الى غيرى كى لاينظر الى مساويهم أنت ولا غيرك وقال صلى الله عليه وسلم حياتى خير لكم وموتى خير لكم أما حياتى فأسن لكم السنن وأشرع لكم الشرائع وأما موتى فان أعمالكم تعرض على فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم وفى حديث أنس الطويل ان الاعرابى قال يارسول الله من يلى حساب الخلق فقال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الاعرابى فقال صلى الله عليه وسلم مما ذا ضحكت ياأعرابى فقال ان الكريم اذا قدر عفا واذا حاسب سامح فقال النبى صلى الله عليه وسلم صدق ألا ولا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الاكرمين ثم قال فقه الاعرابى وفى الخبر يقول الله عز و جل انما خلقت الخلق ليربحوا على ولم أخلقهم لأربح عليهم وفى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما خلق الله شيأ الا جعل له ما يغلبه و جعل رحمته تغلب غضبه وفى الخبر المشهور ان الله سبحانه كتب على نفسه قبل أن يخلق الخلق ان رحمتى تغلب غضبى وعن معاذ بن جبل وأنس رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال من قال لا اله الا الله دخل الجنة ومن كان آخر كلامه لا اله الا الله لم تمسه النار ومن لقى الله لا يشرك به شيأ حرم الله عليه النار ولا يدخل النار من فى قلبه وزن ذرة من ايمان وفى خبر آخر لو علم الكافر سعة رحمة الله ما أيس من جنته أحد الحديث وفى الخبر لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها وفى الخبر ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد حتى ان ابليس ليتطاول رجاء أن تصيبه وفى الخبر ان لله مائة رحمة الحديث قلت خرجه مسلم والبخارى واللفظ لمسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم قال جعل الله

الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الارض جزأ واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ولمسلم فى طريق آخر كل رحمة منها طباق ما بين السماء والارض فاذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة وفى بعض الروايات فاذا كان يوم القيامة جمعت الواحدة الى التسعة والتسعين فيكمل مائة رحمة حتى ان ابليس ليتطاول اليها رجاء ان ينال منها شيأ قال القرطبى قال ابن مسعود رضى الله عنه لن تزال الرحمة بالناس حتى ان ابليس ليهتز صدره يوم القيامة مما يرى من رحمة الله تعالى وشفاعة الشافعين ونقل أبو نعيم فى حليته عن وهب بن منبه أنه قال فى الزبور يا داود هل تدرى من أسرع مرا على الصراط الذين يرضون بحكمى وألسنتهم رطبة من ذكرى هل تدرى يا داود أى المؤمنين أحب الى أن أطيل حياته الذى اذا قال لا اله الا الله اقشعر جلده فانى أكره لذلك المؤمن الموت كما يكره الوالد لولده ولا بد منه انى أريد أن أسره فى دار سوى هذه الدار فان نعيمها فيها بلاء ورخاؤها فيها شدة فيها عدو لا يألوهم خبالا يجرى منهم مجرى الدم من أجل ذلك عجلت أوليائى الى الجنة لولا ذلك ما مات آدم ولا ولده المؤمنون حتى ينفخ فى الصور انى أدرى ما تقول فى نفسك يا داود تقول قطعت عنهم عبادتك أما تعلم يا داود انى أنيب المؤمن على عثرة يعثرها فكيف اذا ذاق الموت وهو من أعظم المصائب ويرى جسده الطيب بين أطباق الثرى انما أحبسه طول ما أنا أحبسه لأعظم له الاجر وأجرى عليه أحسن ما كان يعمله الى يوم القيامة قال داود لك الحمد الهى من أجل ذلك سميت نفسك أرحم الراحمين ثم قال الهى فما جزاء من يبكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على خديه قال جزاؤه أن أحرم وجهه على النار وروى أبو نعيم عن سعيد بن جبير قال قالت بنو اسرائيل لموسى عليه السلام أيخلق ربك خلقا ثم يعذبه فأوحى الله اليه يا موسى ازرع قال زرعت قال أحصد قال قد حصدت قال ادرس قال قد درست قال ذره قال قد ذريته قال فما بقى منه قال ما لا خير فيه قال فكذلك لا أعذب الا من لا خير فيه وروى أبو نعيم بسنده عن يحيى بن سعيد القطان عن نوفل بن مسعود قال دخلنا على أنس بن مالك رضى الله عنه فقلنا حدثنا بما سمعت من النبى صلى الله عليه وسلم قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول ثلاث من كن فيه حرم على النار وحرمت النار عليه ايمان بالله وحب لله وأن يلقى فى النار فيحترق أحب اليه من أن يرجع فى الكفر وفى البخارى قال ان الله تعالى مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة * ولنرجع الى نقل كلام الغزالى قال وقال صلى الله عليه وسلم انى اختبأت شفاعتى لاهل الكبائر من أمتى أترونها للمتقين بل للمخلطين المتلوثين وأما الآثار فقد قال على رضى الله عنه من أذنب ذنبا فستره الله عليه فى الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يكشف ستره فى الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه فى الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده فى الآخرة وقال بعض السلف المؤمن اذا عصى الله تعالى ستره الله تعالى عن أبصار الملائكة كى لا تراه فتشهد عليه قلت ومن هذا المعنى ما حكاه ابن أبى جمرة رحمه الله تعالى قال وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم فى قوله يا من أظهر الجميل وستر القبيح ان الله عز وجل خلق تحت العرش تماثيل على صفة كل شخص من بنى آدم فاذا تحرك الآدمى بأى نوع تحرك تحرك ذلك التمثال بمثل ما تحرك به الآدمى لكن بفضل الله ان كان تحرك الآدمى بطاعة تحرك ذلك التمثال بمثلها فأبصرته الملائكة فاستغفرت له ودعت له وان كان بمخالفة أو مكروه ستر الله عز وجل ذلك التمثال عن الملائكة فلا يرونه حين يتحرك بالمعصية فسبحان من هذا حلمه بعد علمه قال ابن أبى جمرة رحمه الله تعالى وقال عليه السلام من أصبح وأمسى لا ينوى ظلما لاحد غفر له ما جنى قال الغزالى ولقى مالك بن دينار أبانا فقال الى كم تحدث الناس بالرخص فقال يا أبا يحيى انى لارجو أن ترى من عفو الله يوم القيامة ما تخرق له كسائى هذا من الفرح وفى حديث ربعى بن حراش عن أخيه وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت قال لما مات أخى سجى بثوبه وألقيناه على نعشه فكشف

الثوب عن وجهه واستوى قاعدا فقال انى لقيت ربى عز وجل فحيانى بروح وريحان وهو عنى غير غضبان وانى رأيت الامر أيسر مما تظنون فلا تغتروا وان محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع اليهم قال ثم طرح نفسه فكأنها حصاة وقعت فى طست فحملناه ودفناه قلت وقد ذكرنا هذه الحكاية فى كتابنا الانوار فى معجزات النبى المختار صلى الله عليه وسلم عن ابن القطان والسهيلى وفيه قال ربعى مات أخى فسجيناه وجلسنا حوله فبينما نحن كذلك اذ كشف عن وجهه ثم قال السلام عليكم قلت سبحان الله أبعد الموت قال انى لقيت ربى فتلقانى بروح وريحان وهو عنى غير غضبان وكسانى ثيابا خضرا من سندس واستبرق أسرعوا بى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قد أقسم أن لا يبرح حتى أدركه وآتيه وان الامر أهون مما تذهبون اليه فلا تغتروا قال الغزالى وفى الاثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين فى العبادة فاذا أدخلا الجنة رفع أحدهما فى الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا فى الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعته على فى عليين فيقول الله سبحانه انه كان يسألنى فى الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألنى النجاة من النار فأعطيت كل عبد سؤله قال الغزالى وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل كما قدمنا لأن المحبة أغلب على الراجى منها على الخائف فكم من فرق فى الملوك بين من يخدم اتقاء لعقابه وبين من يخدم ارتجاء لانعامه واكرامه ولذلك أمر الله تعالى بحسن الظن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم سلوا الله الدرجات العلى فانما تسألون كريما وقال صلى الله عليه وسلم اذا سألتم الله سبحانه فاعظموا الرغبة وسلوا الله الفردوس الاعلى فان الله لا يتعاظمه شئ وقال بكر بن سليمان الصواف دخلنا على مالك بن أنس فى العشية التى قبض فيها فقلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك فقال لا أدرى ما أقول لكم الا انكم ستعاينون من عفو الله سبحانه ما لم يكن لكم فى حساب ثم ما برحنا حتى أغمضناه رضى الله عنه وقد نقلها عبد الحق فى العاقبة ولفظه وقال مالك بن أنس لمن حضره وقد نزل به الموت ليعاين الناس غدا من عفو الله وسعة رحمته ما لم يخطر على قلب بشر قال كشف له رضى الله عنه من سعة رحمة الله وكثرة عفوه وعظيم تجاوزه ما أوجب ان قال هذا قلت وقد روى أبو نعيم فى الحلية عن مسعر بن كدام عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله سبحانه يعثنى بالحق ليرين الناس يوم القيامة من رحمة الله سبحانه شيأ لم يخطر على قلب ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا عبد صالح قلت وهذا حديث عظيم وقد أثنى سفيان الثورى وسفيان بن عيينة وشعبة بن الحجاج وغيرهم على مسعر وتوفى مسعر فى حياة سفيان الثورى قال على بن المدينى قال يحيى بن سعيد القطان ما رأيت أثبت من مسعر وقال شعبة كنا نسمى مسعرا المصحف وقال سفيان الثورى كنا اذا اختلفنا فى شئ اتينا مسعرا فسألناه قال سفيان قيل للاعمش ان مسعرا يشك فى حديثه فقال شك مسعر كيقين غيره وقال أبو حاتم الرازى شك مسعر أحب الى من يقين غيره وقال ابن داود كل قد أوهم فى حديثه غير مسعر وقال ابن عيينة سمعت مسعرا يقول التدليس دناءة قال الغزالى ورأى الاستاذ أبو سهل الصعلوكى أبا سهل الزجاج فى المنام وكان يقول بوعيد الابد فقال له فكيف حالك فقال وجدنا الامر أسهل مما توهمنا ورأى بعضهم أبا سهل الصعلوكى فى المنام على هيئة حسنة فقال له يا أستاذ بم نلت هذا فقال بحسن ظنى بربى وحكى ان أبا العباس بن سريج رأى فى مرض موته فى منامه كأن القيامة قد قامت فاذا الجبار سبحانه يقول أين العلماء فجاؤا ثم قال ماذا عملتم فيما علمتم قال فقلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض الجواب وأراد جوابا آخر فقلت أما أنا فليس فى صحيفتى الشرك وقد وعدت أن تغفر ما دونه قال فاذهبوا فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك بثلاث ليال قلت وقد أطال الغزالى فى أسباب الرجاء وها أنا أستدرك ان شاء الله تعالى بعض أحاديث الرجاء المقوية لحسن الظن بالله سبحانه معززة لمخرجيها لانى أميل الى العز واذبه يثلج الصدر وبه تنشرح الصدور ويستولى عليها الضياء والنور وقد روى أبو نعيم فى الحلية عن يونس بن ميسرة قال دخلنا على يزيد بن الاسود عائدين ودخل واثلة بن الاسقع رضى الله عنه فلما نظر اليه يزيد مد يده فأخذ يده

فمسح